العنوان:	بعض مظاهر النشاط الصوفي في المغرب في القرن 12 هـ / 18 هـ
المصدر:	مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الناشر:	جامعة القاضي عياض - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	بوكاري، أحمد
المجلد/العدد:	ع 13
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1996
الصفحات:	81 - 90
رقم MD:	514841
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	التصوف الإسلامي ، الطرق الصوفية ، المغرب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/514841

بعظ مظاهر النشاط الصوفي
في المغرب في القرن 12 هـ/ 18 م

د. أحمد بوكاري

توطئة

اقترح أحد الباحثين في حقل الممارسات الصوفية ثلاث مراحل أساسية في تاريخ التصوف المغربي : [1]

- مرحلة البدايات إلى نهاية ق 5 هـ
- مرحلة استقرار التصوف : في ق 6 هـ وما بعده «العهد الكلاسيكي»
- مرحلة تجديد التصوف (في 9 هـ و 10 هـ).

دون الإشارة إلى خصائص المرحلة الموالية، باعتبارها خارج إطار دراسته واهتمامه.

وفي إطار تدعيم هذا الإختيار، نورد الملاحظات التالية :

أ - ارتبط العهد الكلاسيكي للتصوف بمرحلة إشعاع حضاري لمجمل الجناح الغربي في العالم الاسلامي على عهد المرابطين والموحدين بصفة خاصة.

ب - في حين ارتبطت مرحلة التجديد الصوفي في إطار الجزولية والزروقية (الشاذلية) ق 9 هـ برغبة أكيدة في ترسيخ الممارسة الصوفية على المستوى الإجتماعي والإقتصادي والسياسي (التصوف العملي والتأطيري) بارتباط مع انحسار وتراجع السلطة المغربية، وهذا الواقع الجديد دفع إلى تكاثف جهود القوات

(1) الشاذلي عبد اللطيف : التصوف والمجتمع (1989) ص : 70 - 75.

الحية في البلاد وعلى رأسها شيوخ الزوايا، مما أفضى إلى هيكلة جديدة للنظام السياسي والاجتماعي أصبحت الزوايا ركيزة إساسية من ركائزه [2].

ج - ومن إفرازات هذه التجربة، الحضور الفعلي والشامل للزوايا في أزمة مغرب ما بعد أحمد المنصور الذهبي (ت 1012 هـ / 1603) بل إن قيام حكم الأشراف العلويين تم على أنقاض تنظيمات صوفية من أبرزها «الإمارة الدلائية» [3] وبهذا الرصيد كان حضور الزوايا في العهد العلوي [4].

من هذا المنطلق سنعمد إلى الدفع بهذه التجربة نحو خط تصاعدي في الزمن، مستفسرين عن مآل هذا النوع من التصوف المؤسساتي الذي جمع بين القناعات المذهبية والممارسة الدنيوية في أوسع مظاهرها ...دون أن يصرفنا ذلك عن تصوف آخر بقي رجاله أوفياء لمنابعه وأسسه النصية، ومن تم بقي بعيدا عن الأضواء فهل آثر هؤلاء الانزواء عن اختيار أم اضطرار ؟ وتمثل ذلك في :

- تصوف الحلقات الدراسية أو التصوف التعليمي.

- تصوف تعبدي وتأملي ... فعندما سئل أحدهم عن موقفه من أحد الحكام الأقوياء أجاب :

« إنما الخشية من الله تعالى، ومع هذا فالماء والقبلة لايقدر أحد على نزعهما، والباقي أمر متروك لمن طلبه ... [5]

---

(2) ارتبط الصعود الصوفي في ق 9 هـ/ 15 م بحركة جهاد ضد الغزو المسيحي للشواطئ المغربية قامت فيه الشخصيات الدينية بدور بارز، بل إن تأسيس الحكم السعدي جاء بمبادرة وتزكية من هؤلاء الأعلام.
- الشاذلي : م.س. : ص : 271 - 276.
- حجي : الحياة الفكرية، ج 1 / 197 - 261.
- كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية : 35 - 39.
(3) حجي : الزاوية الدلائية (1988) ص : 237 - 256.
(4) يظهر أن البحث في هذا الموضوع لايزال في بدايته رغم وجود تراث مكتوب ومتواثر.
(5) دوحة الناشر (1976) , 85 أنظر أيضا : نشر المثاني في العديد من الترجمات.

أولا : تصوف «الشهرة» وأزمة تناقضه

لقد تحول العديد من المتصوفة من مهمة إرشاد الخلائق وتوجيهها وجهة دينية صحيحة إلى الجمع بين خطاب التعليم والهداية ومشاريع اكتتاب الخلائق وجمعها كقوة مادية ومعنوية رئيسية لعيش وتنمية الزاوية أو أسرة صوفية مرتبطة بها في إطار مؤسسة دينية متعددة الوظائف والمهام ... فتعالت أصوات الإحتجاج والإستنكار العلني والضمني ضد تصوف أو متصوفة «الشهرة» أو «تصوف أرباب الدنيا» وهذا الخلل يوجب في نظرهم ظهور «المجدد». ولاعجب أن كانت رموز هذا التصوف الدنيوي ثلاث زوايا تكاد تتقاسم النفوذ الروحي للبلاد المغربية : الزاوية الشرقاوية،الزاوية الوزانية، الزاوية الناصرية، بيد أن دراسة متأنية لأوضاع هذه الزوايا - النموذج، ستجعلنا نكشف عن حقائق تجعل من هذه الزوايا ضحية تراكم تجربتها بحيث في غالب الأحوال لم تكن مسؤولة عن إفرازات صيرورتها التي جعلت منها قوة فاعلة ومشعة عن رغبة من شيوخها أو بالرغم منهم.

ذلك أن شيخ الزاوية الشرقاوية محمد الصالح (ت 1139 هـ) المعاصر للسلطان المولى إسماعيل العلوي، كتب إلى الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1176 هـ) رسالة تنم عن تشكك وقلق هؤلاء الأعلام من أمور خارج إرادتهم :

«فلم يبق من التصوف إلا محض الفضل، لتعذر الأهلية في هذا الزمان، والسير على الطريق الجادة كسير الأوائل ...»

ويستنتج الشيخ من هذا أمورا أساسية في طريق القوم :

- «قلة انتفاع المريد اليوم من شيخه، هل ذلك من عدم صدق المريد أم من عدم أهلية الشيخ»؟

- «وما بال أرباب الوقت اليوم المنتحلين طريق القوم، لايحصل المدد لمن صاحبهم كمدد من سلف» ؟

- و«مسألة الخواص المذكورة للبركة في الطعام والادام والدراهم، ما أصلها»؟

- « جوابك سيدي فيما يبرز من الأولياء على سبيل الكشف، ويظهر الله خلافه ».

- « ما سبب تكلم المدعين النسبة اليوم في عصرنا، حتى أن بعضهم يقسم أن فلانا المعاصر له لكاذب في دعوته، ويحذر من الفرار منه كالفرار من المجذوم » (6)

نستفيد من هذا :

إن التصوف على طريقة أهل الجادة قد انعدم أو كاد من خلال اختفاء الآثار والتجليات المرتبطة به. وهذا بشهادة أحد أعلامه وكبار المنتسبين إليه من شيوخ الزوايا الكبرى .. ولا شك أن توجيه هذه الأسئلة من أحد ممثلي تصوف « الشهرة » إلى أحد رموز تصوف " الخمول " من آل الفاسي له أكثر من معنى ... أو على الأقل يطرح إشكالية تصوف البادية مقارنة مع تصوف الحاضرة (فاس) (7).

إن عملية الطعن والتشكيك في صلاحية هذا المنحى ليست خارجية فقط بل جاءت أيضا من الداخل، فالأمر أصبح مشاعا إلى درجة القلق العام، في عهد تميز بمركزة قوية للسلطة المخزنية الإسماعيلية ... مما يجعلنا نتساءل عن مدى أهمية السلطة السياسية ودورها في إخماد فتيل كل ما يعتبر من صميم التصوف الروحي والذوقي وإشاعة وتشجيع ما يمكن وصفه بالمظاهر الخارجية والدنيوية للتصوف " الإشتهاري "؟

وتحت ضغط هاجس التصحيح والتجديد، نجد الشيخ محمد المعطي الشرقاوي (ت 1182 هـ) يستلهم من سيرة شيخه الأكبر محمد بن سليمان الجزولي (ت 870 هـ) ما يلبي به تطلعاته التطهيرية وهو ما أثمر تجربة غنية وفريدة في باب الاذكار والابتهالات والاستغفارات والتحميدات والصلوات والمعارج والترقيات الروحية

(6) أحمد بوكاري : الزاوية الشرقاوية ، ج 1 ص : 278 - 279.
(7) حول إشكالية تصوف " الشهرة " و تصوف " الخمول " أو " الكمون " أنظر
- أحمد بوكاري : " الأحياء والتجديد الصوفي في المغرب ".
الباب الأول من أطروحة جامعية مرقونة مراكش (1993) ص : 133 - 238.

أودعها مجلدات وأسفار " ذخيرته " كآخر ملاذ للإعتصام من أسر المغريات وجاذبية الماديات حتى وصفه تلميذه العبدوني بأنه " المجدد " في عصره ... بيد أن إرهاصات هذا التجديد بقيت سجينة إبداعاته الأدبية والذوقية ما دام واقع البلاد السياسي والثقافي لايسمح بأكثر من ذلك، ذلك أن الشيخ محمد المعطي كان معاصرا في أواخر حياته لحكم السلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله [8].

وإذا كانت مصادر الزاوية ومصادر تراجم المتصوفة عامة تجمع على ما أصبحت عليه الزاوية الشرقاوية من قوة مادية في عهد شيخها محمد العربي (توفي في 1234 هـ) . إلا أن هذه القوة بدورها أصبحت عقبة في طريق تأقلم الزاوية مع منابعها الصوفية الشاذلية من جهة، ومع السلطة الشرعية القائمة من جهة أخرى ... مما جعلها طرفا رئيسيا في أحداث ولعبة الخلافة بين أبناء السلطان محمد بن عبد الله وأنها تبعا لذلك ستتحمل تبعات ونتائج هذا التموقع.

في هذا الأفق يمكن قراءة تاريخ زوايا مماثلة مثل الوزانية والناصرية مع اختلاف في التلوينات ذات الصبغة المحلية والجغرافية والبشرية ... ويكفي في هذا الباب الإستشهاد بمؤلف " المزايا فيما أحدث بأم الزوايا " الذي ألفه محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239 هـ) متهما زاوية " تامگروت " في عهد شيخها يوسف بن محمد الكبير (ت 1197 هـ) بأنها أصبحت " زاوية بدعة " بعد أن كانت "دار سنة وعلم وجد واجتهاد ... " معللا ذلك بأمرين :

- إسناد الأمر إلى غير أهله.

- أن يقل العلم ويكثر الجهل [9].

---

(8) حول التعريف بأعلام الزاوية الشرقاوية وإنتاجاتهم الصوفية وممارساتهم السياسية طوال فترة الحكم السعدي والحكم العلوي : أنظر : الزاوية الشرقاوية : م.س.

(9) حول هذه المعطيات : أنظر :

أحمد بوكاري (1993) ص : 134 - 163.

ثانيا : تصوف " الخمول " وشروط التجديد الصوفي

إن المتصوف الصادق فقير بطبيعته : ذلك أنه يزهد في الحرام استجابة لنهي الدين، وفي الحلال استشعارا لألم الحرمان، الذي هو وسيلة من وسائل تطهير النفس وتقويتها " (10).

ويرتبط بهذا الموقف الديني والسلوكي، جملة من المثل والقناعات :

- الإنزواء عن مخالطة الناس وأهل الدنيا والجاه.
- الإبتعاد عن مظاهر الشهرة الدينية والدنيوية.
- التبري من أي ادعاء أو اقتدار، إلا ما كان من تدبير الخالق ومشيئته.
- العيش من عمل اليد حرصا على الرزق الحلال، ودفعا لكل شبهة.
- الإشتغال بالعلم ومعاشرة أهله.
- إرشاد الخلق من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتعتبر سيرة الرسول (صلعم) المنبع الأسمى والأمثل لهؤلاء المتصوفة الزهاد، بيد أن العديد منهم رغم التزامهم المبادئ السالفة تكون سيرتهم سببا في شهرتهم الدينية والدنيوية من حيث يشعرون أولا يشعرون بالنظر إلى أهمية الدين ورجالاته في المجتمعات الإسلامية التقليدية.

في هذا الأفق، نتساءل عن شروط وجود واستمرارية ما يمكن أن ينعث بتصوف " المثل أو التصوف الملتزم " في شكله السني البسيط أو ماله ارتباط بتصوف أهل الحقائق. هل عزوفه عن الشهرة الدنيوية راجع إلى :

- قناعات دينية ومذهبية صرفة ؟

(10) عفيفي : التصوف ثورة روحية في الإسلام، ص : 136 - 137.

- أم أن الأمر يتعلق بمرحلة تأسيسية " جنينية " لم تتوفر لها شروط التطور والتحول من حالة الكمون (الخمول) إلى حالة " الشهرة " ؟

وفي كل الأحوال فإن من أهم شروط هيمنته المادية والأدبية استمرار تداول " المؤلفات الصوفية " كمصدر ومنبع فكري وثقافي تواصل إغناؤه والتحاور بشأنه عبر عصور وعصور. من ذلك :

أ - كتب التراث الصوفي الشاذلي :

تعتبر مصدرا رئيسيا لتصوف أهل السنة وعلى رأسهم الإمام الجنيد (ت 277 هـ)، ومن أبرز هذه المؤلفات : كتب ابن عطاء الله (ت 709 هـ) ومنها "الحكم العطائية" وشرح " ابن عباد " عليها الذي عرف ب " التنبيه " وقد وصف الشيخ زروق هذا التراث بقوله :

" إن أعلى ما ألف في التصوف كتب ابن عطاء الله " فكانت بالضرورة أساس منهجه الإحيائي والتجديدي في القرن 9 هـ / 15 م. ومن تم احتلت مؤلفات زروق (ت 899 هـ) مكانة خاصة عند متصوفة المغرب طوال العصر العلوي شأن كتاب " القواعد " و " عدة المريد الصادق " و " النصيحة الكافية " كما شرح الأسماء" الحسنى " وشرح " الحكم العطائية " وشرح " المباحث الأصلية " لابن البناء السرقسطي الوارد ذكره.

ومن الذين اهتموا بشرح وتدريس هذه المؤلفات في القرن 12 هـ محمد بن قاسم جسوس (ت 1182 هـ) الذي كان يدرس في مجلسه "الحكم العطائية" كما كان له شرح عليها وشرح على " منظومة ابن عاشر " وكذلك : محمد بن الطيب بن كيران (ت 1227 هـ) الذي كان له شرح على الحكم وعلى " الصلاة المشيشية " نسبة إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش دفين " جبل العلم " وهو شيخ الإمام أبي الحسن علي الشاذلي (ت 656 هـ)، في حين أن حمدون بن الحاج (ت 1232 هـ) نظم " الحكم العطائية".

اعتبارا لهذه الأهمية، فإن مؤلفات ابن عطاء الله ستكون مرة أخرى إحدى دعامات الاحياء الصوفي في القرن 13 هـ/ 19 م.

ب : الإهتمام بأمهات التصوف. منها :

- مؤلفات أبي طالب المكي (ت 386 هـ) خاصة " قوت القلوب "
- الرسالة القشيرية : لأبي القاسم عبد الكريم القشيري (ت 385 هـ)
- " المباحث الأصلية " لأحمد بن يوسف التجيبي السرقسطي.
- الرائية الشريشية : لأحمد بن محمد بن أحمد بن خلف الشريشي السلوي المتوفى (644 هـ أو 643 هـ).

وتقدم لنا ترجمة أحد أبرز وجوه التصوف المغرق في المشاهدة والمكاشفة (الشيخ عبد السلام التواتي ت 1155 هـ) الأهمية الكبرى لهذه المؤلفات، فقد كان يقسم أن لايشم أحد رائحة الطريق إلا إذا لم يبق في قلبه ولا في يده شيء من الدنيا ولاشيء من النفس (11).

ويجمع هذه المؤلفات خيط واحد، يتمثل في رسم معالم الطريقة على أوضح مسلك سني، يقوم على الإتباع، ونبذ كل أشكال الابتداع وتفضيل علم التوحيد والمعرفة على ماعداه. وقد زاد من تأمين دروب هذا المسلك وتدعيم هذا الإختيار ما تركه حجة الإسلام الإمام الغزالي من مؤلفات في هذا المجال رافقت مسيرة الحركة الصوفية بالمغرب منذ انطلاقاتها الأولية، وكانت أساس تقعيدها وإشعاعها كما كان الشأن في القرن 12 هـ وبعده

ج : منزلة كتاب " الأحياء " للغزالي (ت 505 هـ).

يعتبر وصول أفكار الإمام الغزالي إلى المغرب، علامة تطور كيفي في الفكر الصوفي بهذه البلاد، إذ فتح باب الجدال والنقاش والخلاف على مصراعيه، مما أغنى

---

(11) القادري : نشر المثاني (ج 4) : ص 32 - 36، وكذلك ترجمة محمد الكبير السرغيني (ت 1164 هـ) : ن.م. ص : 84 - 89.

التجربة الصوفية إلى حد كبير.

إن العثور على مواقف رافضة أو محذرة من أجزاء معينة من كتاب " إحياء علوم الدين " لم يحل دون انتشاره أو اعتماده كأفضل ما ألف في موضوع الموافقة بين الشريعة والتصوف حتى دعي صاحبه ب " حجة الإسلام ".

وتكمن خطورة هذا المؤلف في غناه الفكري الذي يعبر عن غزارة تكوين مؤلفه، وعمق ثقافته الشرعية والصوفية والفلسفية. ولذلك كان التنبيه بشأنه على أمور منها :

- الإقتصار على أجزاء معينة من كتاب الأحياء والتحذير من أخرى.

- ربط الإستفادة منه بمراحل التكوين والترقي الصوفي : بداية، ووسطا ونهاية.

- إن خطورته تكمن في عمق مقولاته فيما يتعلق بالنفس ومعارجها ووسائل تقويمها، وكذلك في عمق معنى " العلم اللدني " عنده وكيفية الوصول إليه .

ومن تم نبه المتصوفة العلماء على صعوبة فهم هذه المقولات وإيجاد المخارج لتأويلاتها، إذ أن ذلك لايتأتى إلا لكبار العلماء والمتصوفة المحققين وأصحاب الرسوخ في الإيمان والعقيدة واليقين، ومن هذا المنطلق ركز المشروع الإصلاحي للسلطان العلوي سيدي محمد بن عبد الله (1171 - 1204 هـ) على مزالق علم الكلام وكتب التصوف المشبعة بالآراء الفلسفية شأن كتاب " الإحياء "[12].

خلاصة

ساعدت أجواء الإستقرار الإجتماعي والسياسي في عهد العاهلين العلويين المولى إسماعيل وسيدي محمد بن عبد الله على إحياء شامل للثقافة الدينية بما في

(12) العبادي " سيدي محمد بن عبد الله الملك المصلح " (1988)

ذلك التصوف دون إغفال أهمية التأثيرات المشرقية في هذا المجال، وهو ما أغنى حلقات العلم والدراسة في المساجد والجوامع والزوايا والمدارس، فتعددت الكتابات والمؤلفات والشروح ... بيد أن نهاية ق 12 هـ شهدت تصاعدا لحدة النقاش والجدال بين من اعتبروا انفسهم أوفياء وأوصياء على التصوف الحق (الخامل) وبين أصحاب تصوف الطوائف والزوايا الكبرى الذين وصفوا بأنهم أصحاب تصوف أرباب الدنيا ... وهو ما أثمر المشروع الإصلاحي للسلطان سيدي محمد بن عبد الله لإرجاع الأمور إلى نصابها ... إلا أن هذه المبادرة كانت محدودة النتائج والفائدة ولذلك سيطرح هذا الإشكال بكامل الحدة في الحقبة الموالية والتي تختلف في العديد من معطياتها عن سابقتها ... وهو موضوع سنعود إليه في إطار آخر.